مفهوم الأمة
لدى طائفة من المنتمين إلى الخطاب الإسلامي المعاصر

د/ إبراهيم نويري
أستاذ محاضر ــ جامعة تبسة

تمهيد:

عندما نعود إلى تقصّي التراث الفكري الإسلامي القديم فإننا لا نجد وروداً أو استعمالاً لمصطلح " الأمة الإسلامية " بهذا الوصف المركّب؛ وإنما نجد مصطلح "الأمة" لدى بعض المفسرين والكتّاب. وربما كان الإمام المناوي [952 ـ 1031 هـ/ 1545 ـ 1622 م] صاحب السفر الشهير (فيض القدير) أول من استخدم مصطلح "الأمة الإسلامية" في بدايات القرن السابع عشر الميلادي. وتحديداً في سياق الحديث عن المعاني والمفاهيم السياسية.

أما في عصرنا هذا فلقد اهتمّ الخطاب الإسلامي المعاصر بتعريف "الأمة"، باعتبارها فضاءً ومدارَ عملِ الفرد المسلم وتحقيق المنجزات والأهداف وتجسيد الآمال المشتركة. وأيضا لكونها الإطار الحضاري والإنساني الذي بسببه تتحول أحكام الدين إلى ممارسة، وتتنزل قيمه وتعاليمه وإرشاداته في الواقع.. وقد ورد مصطلح "الأمة" في كتابات المنتمين إلى الخطاب الإسلامي المعاصر مرتبطاً ومضافاً إلى الصفة "الإسلامية" وأيضا ضمن معالجات السياقات السياسية.

وفي هذا المقال نحاول الوقوف على نماذج مهمّة من تعريفات أصحاب الخطاب الإسلامي المعاصر لهذا المصطلح.

مصطلح الأمة في الخطاب الإسلامي المعاصر:

يذهب الشيخ توحيد الزهيري إلى أن الأمة هي جماعة من الناس يوحّد بين أفرادها دينٌ يؤمنون بعقائده ويلتزمون بعباداته وتشريعاته، ومن ثمّ فهو يصبغ

حياتهم الاجتماعية في شتى تجلياتها بصبغته الذاتية، أي يعطي الجماعة هُويّتها الحضارية التي تجعل منها أمةً، أي جماعة لها رؤيتها الذاتية إلى الكون وطريقتها الخاصة المتميزة في ممارسة الحياة.. فالدين بمعناه العام وبما يتضمّنه من عقيدة وعبادة وأحكام اجتماعية وضوابط أخلاقية، هو واهب الهويّة الحضارية للجماعة البشرية، وصانع التاريخ لأنه قلب الثقافة الذي تكمن فيه بذرة الحضارة التي لا تعني في النهاية سوى طريقة خاصة أو متميزة في ممارسة الحياة تعبّر في الواقع المشهود عن عقيدة أو رؤية ذاتية للكون [1]

أما الدكتور لؤي صافي فيرى بأن الأمة هي القاعدة التي يقوم عليها البناء السياسي الإسلامي وهي المحصّلة لمجمل التفاعلات التي تجري بين الأفراد والجماعات الإسلامية. بمعنى أنها تَجمّع قائم على رابطة العقيدة والالتزام بمبادئ وقيم وتوجيهات الوحي، فهي تشكّل - وفق هذا التحديد- المحيط الاجتماعي الإنساني الذي يتيح للفرد فضاءً لممارسة الفعل الإيماني وتحقيق الغاية من وجوده، باعتبار أن الفكرة والقيمة لا يمكن أن تتحولا إلى فعل وعمل إلا من خلال التفاعل والتعامل بين أفرادٍ ومجموعاتٍ يتماثلون في تصوّرهم لمعنى الحياة والغاية من الوجود، ويلتزمون منظومة قيمية مشتركة[2].

لقد كانت فكرة الأمة ولم تزل فكرةً متميّزةً وفريدةً في تاريخ مسار الوعي الإنساني، إذ استطاعت بحق أن ترتفع بالجماعة الإسلامية إلى مستوى سامق، لم تعرفه البشرية من قبل، حيث تجاوزت أواصر الدم والعرق واللغة.. إلخ، إلى آصرة الأمة المتّحدة على أساس العقيدة والفكرة والمبدإ.

ويربط الشيخ الدكتور محمود عكاشة في تعريفه بين الأمة والدولة، فإذا كانت الأمة تعني الجماعة من الناس تجمعهم أواصر قوية، وقد تعني الجماعة الصغيرة أو العشيرة التي يتعصّب إليها كلُّ فرد ينتمي إليها في النسب، فإن الإسلام جاء بمفهوم أعم للأمة، فأصبحت تعني أبناء العقيدة الإسلامية دون نظر في حسب أو نسب، فالمسلمون جميعا أمة واحدة، وقد دلّ الخطاب القرآني على أن المقصود بالأمة دولة المسلمين الواحدة غير المتفرقة، التي تحتوي تركيبتها

على كلّ من اعتنق الدين أو دخل تحت سلطانها، بمقتضى ما تأسست عليه من مبادئ أساسية كالعدل والشورى والمساواة.[3]

بمعنى أن التصور القرآني للأمة يغلب عليه معنى الوحدة في الاتجاه، أي الوحدة في العقيدة والطريقة، دون أن يغيب معنى الوحدة في المصدر، لسببين رئيسيين مترابطين: طبيعة الرسالة التي جاء بها محمد- صلى الله عليه وسلم- ، وطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في عصره. فالرسالة الجديدة تقتضي تكوين جماعة جديدة، تكون الوحدة فيها قائمة على الإيمان بالعقيدة الجديدة وعلى ممارسة أحكامها ونظام قيمها. وهذه الجماعة الجديدة لا تكون جديدة إلا بمقدار ما تتجاوز طبيعة العلاقة القبلية السائدة بين العرب. أليس مثيراً للتساؤل أن تكون كلمة "قبيلة" غير واردة، سوى مرة واحدة، وبصيغة الجمع (قبائل) في آيات القرآن؟ لا ريب في أن هذا الغياب دليل من جملة أدلة على إرادة حامل الرسالة الجديدة نقض نظام العلاقات الاجتماعية المبنية على وحدة النسب، والتمكين لتصوّر الأمة الواحدة المترابطة غير المتماهي مع تصور القبيلة.

أما الأمة ـ الإسلامية ـ في فهم الإمام أبي الأعلى المودودي، فهي تتمايز في سبب تكوّنها عن سائر الأمم الأخرى، فإذا كانت الأمم والمجتمعات تتكوّن ـ بنظره ـ نتيجة لحوادث مفاجئة وعوامل تاريخية، فإن السبب الحاسم في نشأة وتكوّن الأمة المسلمة والمجتمع الإسلامي إنما هو الفعل الإرادي الاختياري النابع من الاستجابة لأمر الله، حسب ميثاق يتم بين الله تعالى وعباده على شعور منهم. إذ يسلّم العباد في هذا الميثاق بأن الله هو حاكمهم وأن هديه هو الدستور لهم، وأن أحكامه هي القانون لحياتهم، وأن الخير هو ما يرشدهم إليه وأن الشر هو ما ينهاهم عنه، وأنهم لن يأخذوا المعيار السليم الصحيح وغير الصحيح والجائز وغير الجائز إلا منه وحده [4].

يتضح من هذا التعريف أن أبا الأعلى المودودي يتجاوز الاعتبارات المعروفة في تكوين الأمم، مثل العامل التاريخي واللغوي والعرقي.. الخ، فهذه العوامل ـ عنده ـ ثانوية إذا تعلق الأمر بالأمة الإسلامية، ذلك أن نسبة هذه الأمة إلى الصفة الإسلامية، يقتضيها، ليكون التطابق بين الصفة والموصوف صحيحا بعيدا عن

التعسف - أن تلتزم شريعة الله في كلّ شؤون حياتها، لأن هذه الشريعة هي الميثاق بين الله وبين عباده الذين ارتضوا منهجه وفق إرادتهم الحرة.

وفي نظر الشهيد سيد قطب فإن مفهوم الأمة المسلمة يقترن برسالتها الرئيسة المتمثلة في إقامة العدل والشهادة على الأمم. فليس هناك مجال - بنظره - سوى أن تُفهم هذه الأمة على أساس كونها أمةً شاهدةً على الناس جميعا، تقيم بينهم العدل والقسط والرحمة، وتضع لهم الموازين والقيم - من مذخور الهدي الإلهي - وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها. وهيهات أن يكون من شأن هذه الأمة أن تتلقّى من الآخرين تصوراتِها وقيمَها وموازينَها. فهي شهيدة على الناس، وهي في مقام الحكم العدل بينهم، وبينما هي تشهد على الناس على هذا النحو، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها فيقرّر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة؛ ووفق هذا التحديد والوصف تتضح حقيقة هذه الأمة ووظيفتها ورسالتها في الوجود[5].

ثم يعود سيد قطب مرة أخرى إلى مفهوم الأمة الإسلامية، ليضيف إلى كونها جماعةً تعتقد بعقيدة واحدة وتتجمّع على آصرتها، وتقوم بوظيفة الشهادة على الخلق من منطلق رسالتها، " تدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة "[6]

ولا يبتعد الشيخ الدكتور صبحي الصالح عن هذه المحدّدات التعريفية الاصطلاحية لحقيقة الأمة الإسلامية.. فالأمة الإسلامية ـ عنده ـ ليست مجرد رابطة جنسية أو عرقية، ولا مجرد دولة ذات مؤسسات وأركان، إنما هي أمّة بفضل إيمان أعضائها المنتمين إليها، إيمانا عميقا نابعا من أحاسيسهم المشتركة؛ وبذلك كان للأمة التي كوّنها الإسلام شخصيتُها الفريدة وملامحُها الأصيلة وخصائصها الفريدة.

أما الحد الفاصل بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم فيرتسم بوضوح في مدى تمسك هذه الأمة المسلمة بحقيقة التوحيد وجوهره الذي يمنحها على الدوام تصوراتِها الإيجابية العملية للعبادة من خلال مكارم الأخلاق تارةً، ومن خلال

الجهاد الدائب لإحقاق الحق تارةً أخرى. وبمعنى مختصر أن الأمة المسلمة لا تُنسب إلى عرقها بل إلى وظيفتها ورسالتها [7]

ولدى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فإن الأمة لا تنفكّ عن التجمّع السياسي الحريص على تجسيد وتثبيت كل المقومات أو الخصائص التاريخية الثابتة، حيث يقول: " أما لباب السياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء فهو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ولغة، ودين وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك حتى يكونَ لها عقيدة راسخة، تناضل عنها، وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها، فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط.. "[8]

الدكتور محمد عمارة من جهته يذهب إلى أن الأمة ـ في أوضح تعريفاتها ـ هي الجماعة والجنس من كلّ حي ـ ولو لم يكن بشرا ـ وهي الجماعة من الناس يربطها رباط الجيل والقرن بحساب الحين والزمان؛ أما بحساب الفكرة والعقيدة، فالأمة ـ في أصلها ـ كلّ جماعة أرسل فيها نبي، فهم جميعا أمة الدعوة، يجمعهم جامع الدعوة ورباطها.. والذين آمنوا منهم هم " أمة الإجابة " يجمعهم جامع الإيمان ورابط الإجابة[9].

وله أيضا تعريف آخر لمصطلح الأمة، يميل فيه إلى جمع جميع العناصر المكوّنة لكيان الأمة، يقول فيه: " الأمة جماعة ثابتة من الناس تكوّنت تاريخيا، ليست عرقية ولا قبلية، لها لغة مشتركة، وأرض مشتركة، وحياة اقتصادية مشتركة، وتكوين نفسي مشترك يجد له انعكاساً في الثقافة المشتركة"[10]

ويقرّ الدكتور محمد عمارة بأن هذا التعريف يستحق منه كل التقدير، وأنه يرتضيه ويتبناه لأنه ثمرة ناضجة للمنهج العلمي في التفكير القومي للأمم، وهو صالح للاستخدام لظاهرة الأمة في المجال العربي والإسلامي، لكنه يضيف

ضميمةً إلى هذا التعريف، تتمثل في أن الجماعة البشرية لكي يصح إطلاق مسمى "الأمة" عليها ينبغي أن تتوافر فيها السمات الخمس الآتية [11]:

1 ـ الجماعة الواحدة المتكوّنة تاريخياً، والثابتة، والتي لا يتحدّد تكوّنها بعوامل عرقية، ويعني ثباتها انتفاء حياة الترحال والهجرات القبلية.

2 ـ امتلاك هذه الجماعة البشرية للغة واحدة، تكون أهم أدواتها الإنسانية في معركة التفاعل والانصهار والحياة الواحدة.

3 ـ وجود هذه الجماعة على رقعة من الأرض لا تفصلها العوائق الطبيعية، والتي تتيح لها فرص التفاعل حول مركز واحد، ومصدر إشعاع أساس واحد.

4 ـ امتلاك هذه الجماعة للظروف والموارد والإمكانات المادية التي من شأنها أن تؤسس لها الحياة الاقتصادية المشتركة دون عقبات أو سدود.

5ـ امتلاك هذه الجماعة للثقافة المشتركة التي تجسد تكويناً نفسياً مشتركاً لدى أبنائها في طول الوطن الكبير وعرضه.

يوجد أيضا من بين مفكري وكتّاب الخطاب الإسلامي المعاصر مَن يركزون على مفهوم الجماعة، باعتبار أن الأمة تبدأ حقيقتها من نواة الجماعة المؤمنة بالرسالة والمبدإ، ومن هؤلاء مثلا الشيخ زكي الميلاد، فهو يرى بأن الجماعة كمفهوم اجتماعي يختزل معاني العيش المشترك والمساواة في الحقوق والواجبات على قاعدة عامة تمثل المرجعية. وهذه الظاهرة أو المفهوم من أهم المفاهيم التي يشجع عليها الإسلام ويرسخها في المجتمع الإسلامي، بل ويؤسس لها من خلال دعوته للتعاون والتشاور والتعارف والتكافل، من خلال كل القيم الاجتماعية في منظومته الحضارية.

تلك القيم العليا التي من شأنها أن تضمن للجماعة التماسك والفاعلية والسعي المشترك الجاد للتطور والتقدم والتجدّد الحضاري المتواصل، فهذه القيم وفي طليعتها احترام حقوق الإنسان وصيانة الحريات العامة، إذا ترسّخت في الفعل والممارسة، تقود إلى أن تتوجّه حوافز الجميع نحو البناء والإنماء، لأن الإنسان لا يعمر مجتمعا يشعر بالظلم والغبن فيه. ومن شأن الجماعة كحالة تعاونية، أن

تلتقي على أهداف عامة تتوخى منها إنجاز كل حاجيات المجتمع انطلاقا من حق الواجب العام. إذ إن من أبرز ما تتصف به الجماعة تلك الروح العامة التي تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كلّ واحد منهم على انفراده أي عندما يكون فذًّا. وذلك كيفما كان أولئك الأفراد وكيفما تباينوا أو اتفقوا في أحوال معيشتهم وفي أعمالهم اليومية وفي أخلاقهم الفردية ومداركهم العقلية، وعلّة ذلك مجرد انضمامهم إلى بعضهم وصيرورتهم جماعةً واحدةً [12].

ويكاد يماثل هذا الرأي، رأي وفهم الشيخ محمد عبد الجبار، الذي يذهب إلى أن الأمة في جوهرها وحقيقتها إنما هي " جماعة أو جماعات من الناس، يعيشون في أرض واحدة، توحّد بينهم الأنظمة والقوانين والتقاليد والآداب والعادات، ويعيشون حياة اجتماعية واحدة، بمعنى أنها: مجموعة تقطن بقعة جغرافية محدّدة من الناحية السياسية ومعترف بها، لها مجموعة من العادات والتقاليد والمقاييس والتقاليد والأحكام الاجتماعية والأهداف المشتركة المتبادلة، التي أساسها الدين واللغة والتاريخ" [13].

يتضح من هذه النماذج أن الخطاب الإسلامي المعاصر ينأى في تشخيصه ومفهومه لمعنى الأمة عن المفاهيم الغربية السائدة، القائمة بالأساس على المضمون القومي والعرقي، ناهيك عن الخلط الواضح - بل والمتعمد أيضا - بين مفهوم الأمة ومفهوم الدولة في فكر الحضارة الغربية، بسبب أن أمم هذه الحضارة كلٌّ منها قد امتلك وأقام دولته المستقلة على أساس من التمايز العرقي والإثني واللغوي؛ ثم إن شيوع المفهوم الغربي الذي يُخلط ويطابق بين الأمة والدولة، يُسهم في تشكيك الأمم الأخرى بوحدتها، حيث يُفقدها الاتجاه الموحّد والسعي المشترك نحو استكمال وحدتها كأمة، وأيضا نحو إقامة الدولة الواحدة التي ترسّخ وحدة الأمة وتُجلي سماتها وقسماتها. فالأمة حقيقة اجتماعية وحضارية خلافا للدولة التي تُعتبر كياناً سياسياً وقانونياً [14].

أما فكريّة الخطاب الإسلامي المعاصر في هذه المسألة فتقدم عامل الإيمان والعقيدة، على بقية العوامل الموضوعية الأخرى المكوّنة لحقيقة الأمة. ولا ريب

في أن هذا المعيار يمنح الإنسان المسلم شعوراً كونياً عالمياً بالانتماء إلى أمته، ولو كان يعيش معزولا في أقصى المعمورة. ذلك أن المؤمن في أيّ أرض وفي أي إقليم هو واحد من أمة الإسلام الكبيرة، والمعيار المطلوب لانتسابه إلى أمة الإسلام، أنْ يكون مؤمناً بغضّ النظر عن لونه وجنسه وأرضه وزمن إيمانه، فبمجرد أن يؤمن يصبح عضواً عالمياً في أمة الإسلام.

فهذا المفهوم الروحي والثقافي للأمة ولعوامل تشكيلها، الذي يتأسس على الإرادة والاختيار المفتوح للناس جميعا، ينأى بالأمة الإسلامية عن التعصّب والطائفية والإقليمية والتحزب، ويجعل الأمة فضاءً حضارياً منفتحاً، لدخول كلّ من يقتنع بعقيدتها وثقافتها عن طواعية وتمييز حرّ واختيار حصيف[15]

لكن الأمانة العلمية تقتضي منا في هذا السياق التنويه إلى أن الخطاب الإسلامي المعاصر ليس بدعا في هذا الموقف، وفي هذا الفهم المتعلق بتراتبية العناصر أو المقوّمات المكوّنة للأمة، فنحن لا نعدم أيضا هذا الفهم وهذا الموقف لدى مفكري العقيدة وعلماء الكلام المسلمين القدامى، فهذا الإمام عبد القاهر البغدادي، يقف الموقف نفسه تقريبا، فيقدّم العامل العقدي / الإيماني على كلّ العوامل المكوّنة لكيان الأمة، حيث يقول: " الصحيح عندنا أن أمة الإسلام تجمعُ المقرّين بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقدمه، وصفاته وعدله، وحكمته، ونفي التشبيه عنه، وبنبوّة محمد- صلى الله عليه وسلم- ، ورسالته إلى الكافة، وبتأييد شريعته، وبأن كلّ ما جاء به حق، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة، وأن الكعبة هي القبلة التي تجب الصلاة إليها.. " [16]

وصفوة القول هنا إن الخطاب الإسلامي المعاصر في فهمه لظاهرة الأمة، يربط المسألة، أي مكوّنات الأمة، بالوحدة السياسية، لأنه يرى أنه من التناقض المعيب أن تكون الأمة واحدة في حقيقة تكوينها- من المعتقد إلى التشريع والسلوك- ثم لا تكون واحدة بعد ذلك على الصعيد السياسي. وإن كان الصعيد السياسي الواحد لا يعني بالضرورة- لدى تيارات وأقطاب الخطاب الإسلامي المعاصر- سلطة مركزية واحدة، أو خلافة جامعة، على النحو أو الصورة المعروفة في بعض مراحل تاريخ المسلمين.

الهوامش:

(1) توحيد الزهيري، التحديات التي تواجه العالم الإسلامي، دار الجميل، القاهرة، ط1، 2003 م، ص 173.

(2) لؤي صافي، العقيدة والسياسة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، واشنطن، ط1، 1996 م، ص 81.

(3) محمود عكاشة، الأمة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 2003 م، ص 57.

(4) أبو الأعلى المودودي، الدستور الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1975م، ص 19.

(5) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط11، 1985 م، ص131.

(6) المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 1402.

(7) صبحي الصالح، الإسلام ومستقبل الحضارة، دار الشورى، بيروت، ط1، 1982م، ص 313.

(8) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص 44.

(9) محمد عمارة، هل المسلمون أمة واحدة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1999م، ص 8.

(10) محمد عمارة، الأمة العربية وقضية الوحدة، دار الوحدة، بيروت، ط3، 1981 م، ص 62.

(11) المرجع السابق نفسه، ص 63.

(12) زكي الميلاد، الجامع والجامعة والجماعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، واشنطن، ط1، 1998 م، ص 52.

(13) محمد عبد الجبار، بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني، دار الأضواء، بيروت، ط2، 1987 م، ص 5 ـ 6

(14) محمد عمارة، هل المسلمون أمة واحدة (مرجع سابق) ص 5.

(15) عمر عبيد حسنة، على طريق الشهود، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 2001 م، ص 160.

(16) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2005 م، ص 11.

